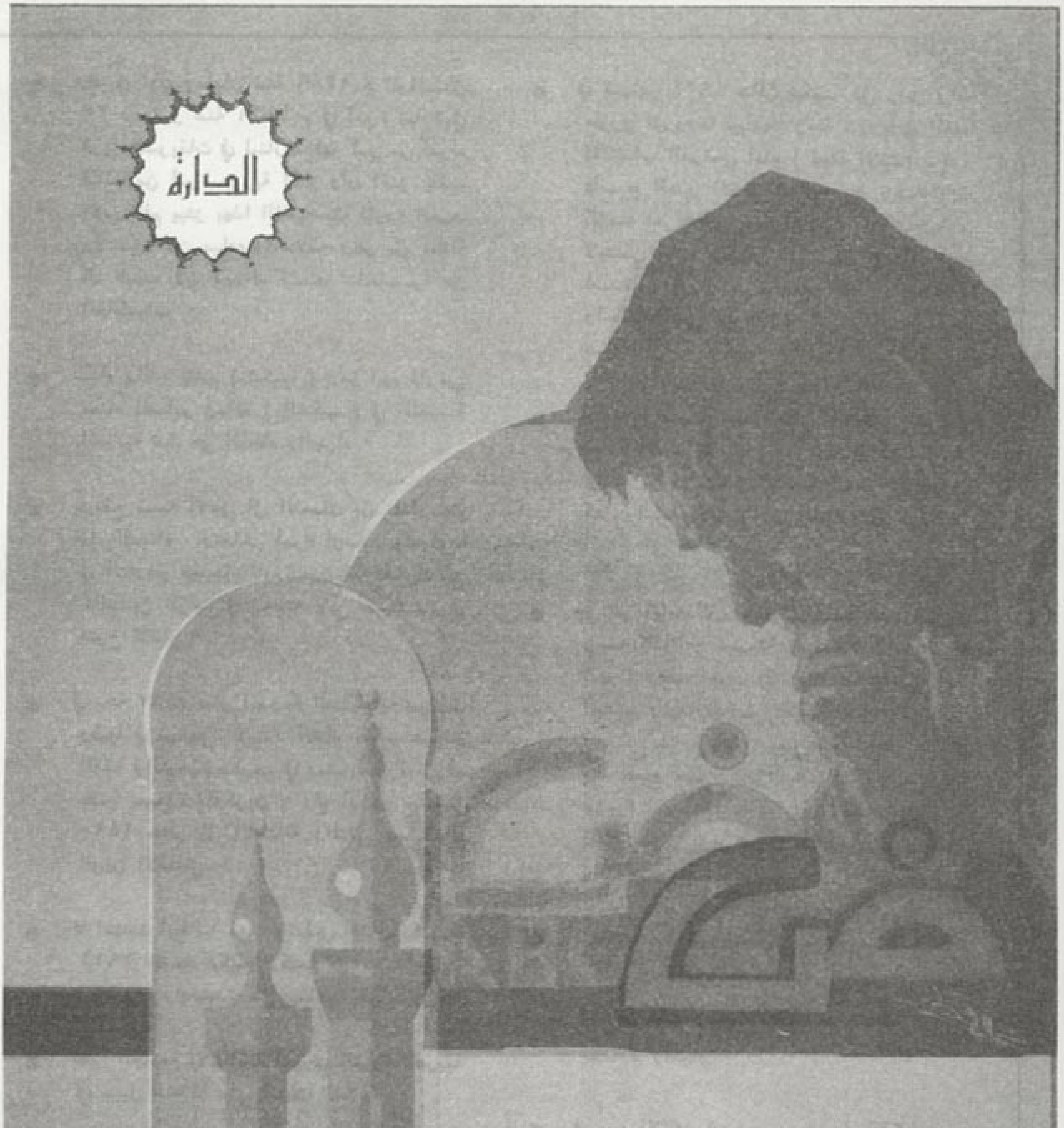
الدارة

في الاسلام

المستشرقون

بقلم : عاطف مصطفى

تناول المستشرقون جوانب كثيرة من الفكر الاسلامي بالدراسة ولاريب كان (التراث الاسلامي) هو أبرز ماتناولوه وعالجوه بالبحث والتقصى من دراسات الفكر الاسلامي المتعددة ، وحين نتقصى وجهة نظرهم في كثير من القضايا فهي غالبا ماتكون خاضعة لاحد أمور ثلاثة :

- اما محاولة فهم الاسلام على أنه دين لاهوتي خالص كالمسيحية بينما الاسلام دين ومنهج حياة ٠

- واما أنهم تأثروا بوجهة نظر السياسة الاستعمارية فخضعوا لها ٠

واما أن أدواتهم البيانية والفكرية قصرت عن فهم طبيعة الاسلام والفكر الاسلامي الجامعة التي تربط بين الثابت والمتغير ، والروحي والمادي ، والدنيوي والاخروي ٠

وأغلب ماتجيء أخطاؤهم في العجز عن فهم الوحي والنبوة والتفرقة بين الالوهية والنبوة ، ولذلك فان اغلبهم ينسبون القرآن الكريم الى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعضهم يعد الرسول مصلحا اجتماعيا ٠

غير أن موقف الاستشراق من التراث الاسلامي ليس موقفا سليما من ناحية الحرص الواضح لدى المستشرقين على الاهتمام بالجوانب الضعيفة والمضطربة من هذا التراث وخاصة الموضوع ، وجوانب الخلاف بين الفرق ، والاهتمام بالتصوف الفلسفي ومحاولة ابراز الاثر الاجنبي في الفكر الاسلامي نتيجة الاتصال بالفكر اليوناني والتهويل فيه ، الى حد القول بأنه أهم معطيات الفكر الاسلامي غافلين عن أن الفكر الاسلامي قد تشكل أساسا قبل الاتصال بالفكر اليوناني أو الفارسي ، أو الهندي وأن العلماء المسلمين حالوا دون سيطرة هذه المترجمات على جوهر الفكر الاسلامي ودورها ، وحرروا معطيات الاسلام منها ، ولم تكن تلك الجوانب التي هي موضع اهتمامهم الا محاولات لاحتواء الفكر الاسلامي لكن هذه المحاولات لم تنجح ولم يلبث الفكر الاسلامي أن استعاد أصالته حين تشكل مذهب الجماعة واستصفى كل ما كان وافدا ، وأساغ الصالح منه ، وتخلص مما يتعارض مع مفهوم التوحيد ..

من هم المستشرقون ؟

المستشرقون عموما من أوربا ، نسبوا أنفسهم الى العلم والبحث ، وشغلوها في أغلب الاحيان بالبحث في التاريخ والدين والاجتماع ، ولكل منهم لغته الاصلية التي رضع لبانها من مجتمعه وبيئته فصارت له « اللغة الام » فهو يغار عليها ويتأثر بها ويستجيب لموحياتها .

لكن المستشرقين تعلموا اللغة العربية بجوار لغاتهم الاصلية ، ومع أن الكثيرين منهم قضوا شوطا كبيرا في تعلم العربية وفي القراءة بها ، وعاشوا في أوساط عربية ردحا من الزمن فنطقتهم للعربية لم يخل من لكنه ورطانة وحين يكتبون بالعربية نجد هذا الاثر واضحا في كتابتهم .. واللغة العربية عند المستشرق لاتسري أصولها وروحها في عقل المستشرق أو وجدانه أو شعوره كما تجري لغته الاصلية « اللغة الام » ..

ومن هنا كان طبيعيا أن نجد هؤلاء المستشرقين لا يجيدون فهم النصوص العربية ، فقد يفوتهم عند مطالعتها الكثير من مجازاتها واستعاراتها وخصائصها الاسلوبية والمعنوية ، ونجد بعضهم أحيانا يفهم النص العربي فهما مضحكا ولعل هذا من الاسباب التي جعلت هؤلاء يفسرون تلك النصوص بشكل غير دقيق ، وربما يدعهم يصدرون أحكامهم غير صحيحة في الوقت نفسه .

(راجع في هذا كتاب الاستاذ العقاد (يقولون عن الاسلام)

كيف بدأ الاستشراق ؟

بدأ الاستشراق منذ قرون كثيرة سابقة للقرن الثامن عشر ، بل نرى أن الاستشراق قد أرسى قواعده منذ العصور الاسلامية المبكرة والاستشراق قد بدأ في أوربا نفسها في العصور الوسطى الاسلامية حينما كان العرب المسلمون يحكمون أرجاء كثيرة في شبه جزيرة ايبيريا « بلاد الاندلس » وفي فرنسا وايطاليا وصقلية وجزر البحر المتوسط فقد كانت أوربا قبل الفتوحات العربية والاسلامية تسبح في دياجير الظلام ، وقد بددت الحضارة العربية الاسلامية هذه الدياجير الحالكة ، وأصبح العرب أساتذة للاوروبيين ، فقد أصبح العرب فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين حملة مشاعل الثقافة والحضارة في ربوع العالم أجمع ، وقد كتبت اسبانيا العربية الاسلامية صفحة في أروع صفحات تاريخ الحضارة في القارة الاوروبية في العصور الوسطى . لقد أقبل الاوروبيون ينهلون من منابع الحضارة العربية وقدم طلاب العلم من كل أرجاء أوربا على بلاد الاندلس يدرسون في جامعاتها ومعاهدها كل الوان العلوم .

حينما أقدم الاوروبيون على الاقتباس من حضارة الشرق العربية والاسلامية وحينما أصبحت هذه الحضارة الشرقية هي أساس حضارة القارة الاوروبية أصبح الاوروبيون حينئذ مستشرقين ،

فقد وجدوا في حضارة العرب مايناسب احتياجاتهم ويسد الفراغ الموجود ، وكانت الحضارة العربية لها من المرونة والواقعية مايجعلها تناسب الشعوب الاوربية على اختلاف بلادها وأجناسها وثقافاتها وقد اتخذ اقبالهم على الاستفادة من الحضارة العربية شكلا علميا منظما ، مما يجعله استشراقا على أسس علمية ثابتة واضحة . فقد اهتمت الدول الاوربية بارسال بعثات علمية الى بلاد الاندلس العربية لدراسة العلوم والفنون والصناعات في معاهدها الكبرى نتيجة ذيوع شهرة الاندلس وحضارتها الزاهرة في انجلترا وفرنسا وهولندة ولكن الامثلة التي توضح بداية الاستشراق العلمي المنظم « تلك البعثات الثلاث التي قدمت الى الاندلس في « ٢١٣ هـ ١٢٩٣ م » وكان تعدادها سبعمائة طالب وطالبة » كما بعث الملك فيليب البافاري الى الخليفة الاموي بالاندلس (هشام الاول) يسأله السماح له بايفاد هيئة تشرف على حالة بلاد الاندلس ودراسة أنظمتها وشرائعها وثقافة مختلف الاوساط فيها ليتمكن من اقتباس المثمر المفيد من ذلك لبلاده .

وظل المستشرقون ينهلون من حضارة العرب والاسلام الى ان اتت الحروب الصليبية والتي كانت عاملا اشد أهمية في نقل الفكر الاسلامي الى الغرب فقد كانت هذه الحروب فرصة محددة لاتصال الغرب بالشرق .

وقد اطلعت هذه الحروب الغرب عن طريق الاتصال بالشرق من جهة والمقارنة بين الاسلام ودينهم من جهة أخرى على مواطن في دينهم تحتاج الى مراجعة او تعديل وهذا ماسماه بعضهم بحركة (الاصلاح الديني) وهذه الحركة استرعت مراجعة أصول الدين عندهم ، فاستدعت المراجعة نوعا من الدراسات العبرانية ، ثم انتقلوا الى الدراسات العربية ثم كانت هناك الرغبة القوية في التبشير بالمسيحية في الشرق ، فاستلزم هذا دراسة اللغة العربية على ايدي المستشرقين ، لتكون تلك الدراسة عونا على النجاح في هذا التبشير ومن هنا تلاقت وجهة الاستعمار مع وجهة التبشير مع وجهة الاستشراق .

وهناك على سبيل المثال الكثيرون من المستشرقين من أمثال رايموند رئيس أساقفة توليدو وحاكم مملكة كاستيل « ١١٣٠ م – ١١٥٠ م » وبطرس المعروف باسم Peterle Venrable وقد حمل بيتر هذا لواء حملة نشيطة ضد الاسلام ، ولام المسيحيين على مهادنة الاسلام ووضع خطة لمحاربته ورأى « بيتر » أن تكون نقطة بداية هذه الحرب هي القرآن ولهذا السبب ترجم القرآن الى اللاتينية ، وتاريخ أول ترجمة يدعو الى الحديث عنها الا أنه لايجوز أن تصفها بأنها ترجمة على أي حال من الاحوال فان روبرت الذي تولى أمر الترجمة لم يقم بترجمة القرآن حرفيا بل قام بترجمة بعض المعاني العربية بقدر ما استطاع ..

وفي الواقع لم تكن محاولة ترجمة القرآن التي قام بها الاستشراق تستهدف فهم هذا الدين على وجه صحيح ولكنها كانت في الغالب تحاول اقتناص بعض الاسباب للهجوم عليه .

ورغم الاسباب العديدة للاستشراق فالظاهرة الغالبة هي أن بعض المستشرقين كانوا عملاء للاستعمار في بلاد العروبة والاسلام ، ومن هنا فقد دابوا على تقويض الخصائص والمقومات الدينية والتاريخية والقومية للعرب والمسلمين لكي يمكنوا للاستعمار في هذه البلاد ، وليشيعوا النزعة الصليبية الغربية في محاولات مختلفة ، ومنها مجال التظاهر بالبحث العلمي المحايد ..

وكان للاسلام نصيب الاسد من هذا الهجوم فهؤلاء المستشرقون يدأبون على الزعم بأن الاسلام دين مادي ليس فيه جمال الروح المسيحية وأنه قام على السيف والتعصب (فاما أن تقول لا اله الا الله محمد رسول الله واما أن تقطع رقبتك بلا جدال) وأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذي صاغ القرآن وصنعه ، وأن المسلمين قوم لايصلحون للحياة ولا للعزة ، ومن وراء هذه المفتريات دأب المستشرقون على توهين قول المسلمين وايهامهم في كل مناسبة بأنهم ضعفاء أذلاء متخاذلين في شتى ميادين العلم والادب والحياة .

العطاء

وعلى الرغم من هذا أسوق في بحثي ما تعرض له المستشرقون حول الاسلام ديننا الحنيف والذي كان نافذة الحضارة لهم ، والذي أعطى للغرب كله وبلاد الشرق كل مقومات الحياة الحقة التي كان أساسها التشريع السماوي الحق : القرآن الكريم .

والدوافع تختلف كثيرا تبعا لاختلاف الازمنة والعصور التاريخية ولاختلاف العلاقات السياسية والدولية لاختلاف البيئات الجغرافية وتنوع المستويات الحضارية الى جانب الفروق الفردية ، فليس كل المستشرقين صنفا واحدا ، فهم يختلفون في عقلياتهم ونفسياتهم وصفاتهم ، فكان هناك من المستشرقين من أبدى اعجابا واقبالا على حياة الشرق وتحمس للحضارة العربية تحمسا كبيرا ، وانعكست هذه الميول والاتجاهات في كتاباته ، ومن المستشرقين من اتصف بالتعصب الاعمى ضد الاسلام أو العروبة أو الشرق فكانت كتاباته كلها سهاما مسمومة ، ومنهم أيضا من أبدى اعجابه بالاسلام حتى أنه اعتنقه وأخلص له ، وانعكس ذلك على ابحاثه ، فاقبل يخدم هذا الدين وحضارته بقلمه وفكره ، ومن المستشرقين من تأثر بسياسة دولته التي ينتمي اليها فاصبحت أبحاثه صورة لاتجاهات هذه الدولة واهدافها السياسية أو الاستعمارية .

ومن المستشرقين من هم ضعاف النفوس فأصبحت أقلامهم مأجورة لساسة بلادهم أو للصهيونية العالمية .. ولكن من المستشرقين أيضا من اتصف بالعمق العلمي والتفهم الحقيقي والانصاف الواقعي ، ومنهم من كرس حياته ووقته وجهوده للاستشراق ، يدرس العلم للعلم ، ويبحث عن الحقيقة أينما كانت وقد أشار الاستاذ (خوجه كمال الدين) في كتابه (المثل الاعلى في الانبياء) الى أسلوب الاستشراق فيقول : « اليك بيان الطريقة التي دأبوا عليها في نقد الديانات الاخرى يشير أحدهم الى فكرة ما من طرف خفي ويليه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة ، ويأتي ثالث فيرفع هذا الحوار الى مرحلة النظرية الحقيقية » ، وهكذا تتطور الفكرة : اربعة أطوار أو خمسة الى أن ينتهي بها المطاف الى أن تصبح حقيقة مقررة ، وبخاصة اذا كان الامر يمس أحد الديانات أو الدينيات التي يتوفرون على نقدها ، وللاستاذ مرجليوث جولات خاصة في هذا الميدان .

واليك المثل : جاء الدكتور « فيجانا » فقدم قصة فحواها أنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن الكريم سقط منها بعض أجزائه يريد بذلك أن يوهم القارىء أنه ربما ضاع شيء من القرآن وكان (فيجانا) هذا قد حاول قبل ذلك أن يشكك في صحة القرآن فباء بالفشل الذريع ، فجاء مرجليوث فالتقط الخيط فأشار الى أن (فيجانا) عثر على نسخ سريانية عريقة في القدم ، وأشار الى وجود خلافات ذات بال في المخطوطات القديمة وهذه العراقة في القدم التي أشار اليها مرجليوث لم يمر عليها الا أقل من عام ولكنه يحاول أن يضع في يد الخصم سلاحا يحارب به القرآن ، هل يليق بمرجليوث أن يستعمل عبارة (عريقة في القدم) مع أن فيجانا نفسه لم يقل ذلك ، بل يرى خلاف هذا الرأي .

ومرجليوث هو اول من اثار الشك في الشعر الجاهلي ، وقد أشار في بحثه « الذي نقله طه حسين دون أن يشير اليه في كتابه الشعر الجاهلي » الى أن الشعر الذي يقرأ على أنه شعر جاهلي انما نظم في العصور الاسلامية ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهليين .

ولمرجليوث آراء خصيمة للاسلام والنبي أوردها كتابه « محمد وظهور الاسلام » وقد تناولها بالتحليل الاستاذ أنور الجندي في كتابه « الاسلام والثقافة العربية » وكلها تدور حول شبهات النقل من اليهود والنصارى والتفسيرات الباطلة للنصوص وفق مفهومه اليهودي البالغ الكره للاسلام وكما كان لمرجليوث دوره الهدام نجد نظيره في هذا الاتجاه « جولد تسيهر » والذي تخصص في اثارة الشبهات

حول السنة والفقه والشريعة الاسلامية وفي قيمة الاحاديث النبوية وذلك بالقول بأن الصفة بـدأ تدوينها بعد وفاة النبي بتسعين عاماً ، وفي قولـه في كتابه : (العقيدة والشريعة) : أن التوحيـد الاسلامي ينطوي على غموض ، ومن ذلك قوله : ان الشريعة الاسلامية تأثرت بالقـانون الروماني في بداية تكوينها ، وقد دحض آراءه كثير من الباحثين

(وجولد تسيهر) يحاول في مجمل رأيه أن يصور الفقه الاسلامي وكأنه من صنع الصحـابة والتابعين ، وقد كشف الباحثون أن « جولـد تسيهر » كان مدفوعا في كتاباته بغرض سياسـي خاص هو اظهار أن التشريع الاسـلامي قابـل للمؤثرات الغربية ٠

ولقد صودرت لجولد تسيهر مغالطـات وانحرافات كثيرة أراد بها المغالطة في الحقـائق الاساسية ، ومنها أنه حرف قول الامام الزهـري : « ان هؤلاء الامراء أكرهونا على كتابة الاحاديث » الى لفظ « أحاديث » وذلك لفتح الباب أمام شبهة كبيرة ، كذلك فانه أتهم الزهري بأنه واضع حديث فضل المسجد الاقصى ارضاء لعبد الملك بن مروان مع أن الزهري لم يلق عبد الملك الا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزبير ٠

وقد كشف محمـد أسد « ليوبولد فايس » السر في محاربة السنة ، فقال ان الهدف هو اسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لحياة رسول الله والمسلمين وبذلك يفقد الاسـلام أكبر عناصر قوته ، ويقول : لكي يستطيع نقـدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم فانهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة لأنهم اذا فعلـوا ذلك كان بامكانهم حينئذ أن يتناولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاءون على أوجه من التفكير السطحي أي حسب ميول كل واحد منهم وطريقة تفكيره هو وبذلك تنتهي تلك المنزلة (الممتازة) التي للاسلام على أنه نظام خلقي وعملي ، ونظـام شخصي واجتماعي ، الى التهافت والاندثار ٠

والدوافع التي دفعت المستشرقين للاستشـراق ثلاثة :

١ ـ دينية ٢ ـ استعمارية ٣ ـ علمية

ظهرت هذه الدوافع الدينيـة واضحـة في العصور الوسطى وبداية التاريخ الحـديث ويرى (جوردا بخش) أن هذا التعصب الديني كان ناتجا من سيطرة الكنيسة على أهالي العصور الوسطى ، فقد أدى انتشار الاسلام وقوته الى شعور أوروبـا بالخطر ، وظن البعض أن الاسلام قد أصبح خطرا على المسيحية ٠٠ وكان هذا الشعور بالخطر هـو بداية انطلاق الكنيسة الكاثوليكية المعادي للاسلام وما تبعه من استشراق ٠

فقد نهضت الكنيسة لتواجه تهديد الاسـلام للمسيحية ، فلم تعد تتبع سياسة اللين والتسامح ، واذا أدركنا مدى سيطرة الكنيسة ونفوذها عـلى مسيحي العصور الوسطى وتأثيرها على أدب هـذه العصور فاننا ندرك ما نال الاسلام طوال العصـور الوسطى من هجوم وقدح ، وذلك نتيجة منطقيـة للظروف السائدة في تلك العصـور ، وتحـالف التعصب الديني مع الجهل السـائد في العصـور الوسطى على تشويه صور الاستشراق القائم في هذه العصور فقد أدى هذا الجهل الى أن الاسلام ظل غـير معروف لمعظم أبناء المجتمع المسيحي ، كما ظل محمد في الادب الاوربي شخصية غامضة ٠

ويمكننا أن ننسب هذا الجهل بالاسلام وبمحمد عليه الصلاة والسلام الى قلة الفـرص المتـاحة للمسيحيين لدراسة حياة الرسول أو عقيدته اذ أن علاقات البيزنطيين في ذلك الحين بالمسلمين كانت محدودة ٠٠

حاول المستشرقون دائما تصوير الاسلام في صورة الدين الجامد الذي لايصلح للتطـور أو التجديد ٠٠

وخير مايصور محاولة بعض المستشرقين من أن يلصقوا بالاسلام كل تأخر حضاري أصاب العالم الاسلامي كتاب « الاسلام في التاريخ الحديث» للمستشرق الامريكي المعاصر «ولفردكانتويل سميث» الذي كان مديرا لمعهد الدراسات الاسلامية بجامعة ماكجيل بمدينة مونتريال بكندا ، ويقول في كتابه « للاسلام في العصر الحديث مشكلة وازمة ، فالمسلمون يحسون أن خطأ ما وقع في تاريخهم فانحرف به عن طريقه السوي وأن ثمة مفارقة بين الدين الذي أنزله الله وبين التطور التاريخي للعالم الذي يسيطر عليه ويصرف أموره وانهم يفكرون في كيفية تقويم مااعوج من تاريخهم حتى يعاود سيره من جديد في كامل قوته ثم يقول سميث : « واذن فالمأزق الاسلامي ازاء العصرية يحسه المثقفون بعمق ، فقد مضى أكثر من قرن من الزمان منذ بدت الحاجة الى الدفاع عن العقيدة ضد الضغط الخارجي والتأخر الخارجي ٠٠ »

واليوم وبرغم التقدم في نواح كثيرة نرى الهجوم على الاسلام أكثر شدة ٠٠ نرى هجوما من الخارج ، ومن الداخل ، ليس هجوما من اعدائه الاجانب الخارجيين بل كذلك هجوما على الظاهرة التاريخية للاسلام كحقيقة واقعة وعلى القوة الداخلية لحقه الجوهري ٠

ويمتدح (سميث) الاتراك المحدثين لانهم تخلوا عن الحضارة العربية الاسلامية وأقبلوا على الاخذ بالحضارة الاوربية فهو يقول عنهم ٠٠ : (يعنينا موقف تركيا من التصدي للدين الاسلامي ، فالاتراك لم يرتدوا عن دينهم ولم يهجروه وانما أخذوا يعيدون النظر فيه معيدين بحثه من جديد ، ان الاتراك هم الشعب المسلم الوحيد الذي أدرك على وجه التحديد مايحتاج اليه وهم الشعب المسلم الوحيد الذي استطاع أن يشكل اسسه الفكرية والاجتماعية بما يتناسب مع أوضاع المدنية الحديثة وقد سبق أن قدمنا أن الاسلام يعنى كثيرا بالتاريخ وأن الشق التركي من التاريخ الاسلامي هو الشق الوحيد في المرحلة المعاصرة ، الذي يستطيع أصحابه أن يرقبوه دون أدنى ارتياب ، وهو الشعب الوحيد كذلك بين الشعوب الاسلامية الذي يستطيع أن يطمئن الى أن مشاركته في التاريخ الاسلامي الحديث كانت ذات أثر فعال » أ٠ هـ

وبدأ دخول الاستشراق الى البلاد الاسلامية بطرق شتى من خلال الاستعمار ومن خلال البعثات التبشيرية التي تنكرت وراء اهداف غامضة ورغم تطور حركة الاستشراق ونبذها الجوانب التعصبية التي كانت من طابع العصور الوسطى ، فقد استمر الاستشراق يهتم بالدراسات الاسلامية أكثر من اهتمامه بالدراسات العربية ٠

ويبرر المستشرق « بارت » هذاالاتجاه فيقول « يرتبط الاسلام بالعروبة بعلاقة تبادل فريدة ، فقد كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبهالجزيرة التي سميت نسبة اليهم يعيثون فسادا ، حتى أتى محمد ودعاهم الى الايمان باله واحد خالق بارىء وجمعهم في كيان واحد متجانس ، وانطلقت آيات وسور القرآن لاول مرة في مكة ، وهي أقدم أعمال الثقافة الاسلامية العربية المدونة ٠

ولكن العالم المترامي الاطراف ماكان ليحس بالعرب لو لم يتحولوا بفضل صلتهم بالاسلام الى عامل من عوامل القوة السياسية ٠

لهذا كانت ظاهرة الاسلامظاهرة تلقى أسبقية وافضلية في ميدان البحوث الاسلامية الاستشراقية وعلى الادق في ميدان البحوث الاسلامية ٠

دور المستشرقين في العقائد :

لقد أولى الاستشراق اهتمامه البالغ للتصوف والفلسفة وعلم الكلام والاعتزال والباطنية وكل هذه جزئيات صورة لم تكتمل ولايجوز لها أن تنفصل عن الصورة العامة الكلية للفكر ، ولقد

علت في مرحلتين من مراحل تاريخ الفكر الاسلامي نزعة الاعتزال ثم نزعة التصوف الفلسفي ولكنهما لم يلبثا أن سقطا وحوصرا وثبت تعارضهما مع جوهر الفكر الاسلامي الجامع الاصيل الذي لا يقبل استعلاء النزعة العقلانية التي جاء بها الاعتزال أو النزعة الاشراقية الحدسية التي جاء بها التصوف الفلسفي وكل المحاولات التي يثيرها الاستشراق لاعادة بعث هذا الركام وإحيائه انما تمثل هدفا ماكرا من أهداف الاستشراق .. من ورائه حركة التغريب والغزو الفكري التي تحاول تزييف حقيقة الفكر الاسلامي وجوهره الاصيل .

وفي مجال التراث نجد عناية كبيرة « بالحلاج » الذي وقف المستشرق « لويس ماسنيون » حياته على جمع آثاره ، وبالسهروردي وبشار وأبي نواس وكلها شخصيات موصومة مضطربة ، لم تكن بالنماذج الكريمة أو العالية في التراث الاسلامي بل ان الاستشراق أولى اهتماما كثيرا بشخصيات هاجمت التراث الاسلامي ، وخاصمت رسوله كابن الراوندي ومسيلمة الكذاب وقدم عنهما وعن غيرهما دراسات واسعة نشرت باللغة العربية .. وان أي مراجعة لدائرة المعارف الاسلامية لتكشف عن هذا الاتجاه الدرامي الى ادخال شبهات الاسلام كمادة أساسية فيه ، ونجد هذه المحاولات واضحة في جميع فروع التراث : القراءات وكتابة القرآن وسيرة الرسول . وفي مجال التاريخ والشريعة الاسلامية وفي مجال اللغة والادب .

ويبدو أن جماعة المستشرقين فتشوا كتب التراث الاسلامي القديمة بغية اقتناص الروايات المضطربة والناقصة والمحرفة واستغلوها لاثبات وجهة نظر مسبقة واستعانوا بكتب الادب والروايات والاسمار وألف ليلة وليلة وغيرها لتكون مصادر لاسانيدهم ، بينما هذه الكتب لم تكن في الاساس مصادر علمية للفقه أو التاريخ .. « يحرفون الكلم عن مواضعه » .

وليست دائرة المعارف الاسلامية وحدها التي توصف بالانحراف بل تجد ذلك في « المنجد » الذي تجده الآن موضوعا بين أيدي جميع الباحثين العرب وهذه شهادة عالم له صلة بدوائر الاستشراق هو الدكتور مصطفى جواد الذي يقول ان أغلاط المنجد لا يمكن لأحد أن يستقصيها وقد نبهنا على الثمانمائة والاربعة وعشرين منها ، وأغلب أخطاء المنجد في محاولة تفسير المصطلحات اللاهوتية الخاصة تفسيرا عربيا ..

دور المستشرقين في دراسة التاريخ الاسلامي :

اهتم المستشرقون بتاريخنا الحضاري وهم يعتبرونه ركنا أصيلا في دراسة أدبنا ولغتنا وعلومنا ويرجع اليهم الفضل في ابراز المقومات الكبرى والمعالم الرئيسية لحضارتنا الاسلامية ، فقد أبرزوا أثر الاسلام في حضارات الامم الاخرى ، وكيف تأثرت بها حضارته ، كما أوضحوا أثر الحضارة الاسلامية في حضارة أوروبا ، وأوضح المستشرقون أن الاسلام لم يكن مجرد ثقافة روحية ولم تنحصر حضارته في الادب والفن والفلسفة والتصوف ، ولم تكن الحضارة الاسلامية تراث جنس واحد أو أمة واحدة من الامم ، فقد أنشأ الاسلام حضارة واسعة غنية ، فيها الروح والمادة وفيها المعرفة والعمل ، وفيها الادب والعالم ، وقد اتسع صدرها لكل نافع من ذخائر الحضارات القديمة ، وطبعت تطور الانسانية بطابعها عدة قرون ، ثم تلقى الغرب فيها مبادىء النهضة في العصور الوسطى ، وقد اعترف المستشرقون بذلك وأخرجوا عديدا من البحوث في هذا المجال .

وكان فهم المستشرقين للاسلام وطبيعته وروحه يحدد مدى نجاحهم في دراسة التاريخ الاسلامي والحضارة وكلما وضحت صورة الاسلام في أذهانهم أصبحت واقعية وحقيقية وذات قيمة علمية ، كما أن فهم المستشرق للاسلام يبعده عن تأثره بحضارته الغربية المادية العصرية الدنيوية .

وفي ذلك يقول المستشرق الامريكي المعاصر (ولفرد كانتويل سميث) في كتابه الاسلام والتاريخ الحديث ص ٩ ـ « يمر المجتمع الاسلامي اليوم ، شان بقية الجنس البشري بمرحلة انتقال خطيرة والذي يميز هذا المجتمع ان اعضاءه يواجهون الحياة العصرية بحيرتها وفرضها ، بوصفهم ورثة تقليد فريد ، والسمات المميزة لهذا المجتمع هي : ايمان واسلام ، وماض عظيم ·· ان التطورات التي حدثت في العالم الاسلامي كثيرة وجوهرية لدرجة تجعلها تصعب على الفهم ، على أن هذا الفهم لاغنى عنه لغير المسلمين حتى يقيمون صلاتهم بالعالم الاسلامي على دعائم من الفهم والادراك ، كما ان فهم الاحداث الجارية في العالم الاسلامي انما يتضمن فهما لصفتها الانسانية ، فان عقيدة المسلم صفة وشكلا لتؤثر في تطور مجتمعه سياسيا واقتصاديا وحضاريا ··

اننا في حاجة الى فهم شامل وواضح لماهية الاسلام ، وماهية الحياة العصرية ، ان أردنا فهم حالة العالم الاسلامي ·· فان الاسلام قوة ، وكان في حركة منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا ·· » ا· هـ

لقد أقر الكثير من المستشرقين وكبار الادباء من أهل الغرب بصدق ايمان (محمد) بالرسالة التي عهد الله اليه بتبليغها ·· ومنهم من أشاد بعظمة « محمد الروحية » وبسمو خلقه ورفعة نفسه وحجم فضائله ، ويعلل المستشرق « مونتيه » Montet طعن بعض المستشرقين في الرسول بقوله : (كثيرا ماحكمت عليه الاحكام القاسية) وما ذلك الا لانه ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثله ، وأن ماقام به من اصلاح الاخلاق وتطهير المجتمع يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين الى الانسانية ·· اهـ

وقد ورد في دائرة المعارف البريطانية في « مادة محمد » ماترجمته : « محمد بن عبد الله مؤسس الدين الاسلامي ، ولد في مكة عام ٥٧٠ م ومات عام ٦٣٢ م وقليلون هم الرجال الذين أحدثوا في البشرية الاثر العميق الدائم ، الذي أحدثه (محمد) ·· لقد أحدث أثرا دينيا عميقا ، لايزال منذ دعا اليه حتى الان ـ هو الايمان الحق والشريعة المتبعة لاكثر من سبع سكان العالم ، انه في أقل من عشرين سنة منذ بدأ دعوته ، قوض دعائم أكبر امبراطوريتين عتيدتين هما الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية مؤسسا على أنقاضهما حضارة جديدة ، ولقد أرسى منذ جاء بدعوته التي هي عقيدة ، وشريعة ، قواعد بناء المجتمع السياسية والاجتماعية ، وقد أعقب موته أن سجل خلفاؤه الاحاديث التي رويت عنه ، وأدق التصرفات والافعال التي قام بها ، فاتخذ المؤمنون من هذه الاحاديث نبراسا ومثلا أعلى يحتذونه في حياتهم اليومية جيلا بعد جيل ··

وعلى العموم فهناك كلمة حق تعرض لها الدكتور علي حسني الخربوطلي في كتابه (المستشرقون والتاريخ الاسلامي) يقول فيها : اليس المستشرقون جميعا صنفا واحدا فهناك من قدم انتاجا علميا ضخما أفاد به البشرية عامة والشرق خاصة ، ومنهم من كان انتاجه وجهده متواضعا ، ومنهم من عاش على هامش الاستشراق ، ومهما كانت جهود المستشرقين فقد ساهموا في وضع لبنة أو لبنات في بناء الاستشراق ·

وفي تقييمهم يقول د · الخربوطلي « أنصف كثير من المستشرقين الاسلام والرسول والتاريخ الاسلامي والحضارة العربية ، ولكن بعض المستشرقين دفعهم تعصبهم الاعمى أو حقدهم أو جهلهم أو تقصيرهم الى الاساءة والاجحاف والجحود

ولكنني بدوري اقول انه مهما كان الدور الذي قام به الاستشراق منذ بدايته حتى الان فهو يحمل بذور الشر ، مليء بالسموم التي تنفث لتشويه صورة مجتمعنا الاسلامي القويم ، وكان هذا منذ البداية بايعاز من الكنيسة خوفا من هذا الدين السمح القويم الذي بزغ نوره وتلالا في مكة الشريفة ثم ملا اصقاع الدنيا ·

أحمد أمين

أحمد الشرباصي

لويس ماسنيون

محمد عبد الغني حسن

وفي رأيي أن المستشرق الذي يحاول ممالأة الناس تارة بالمدح وتارة أخرى بالقدح هو في النهاية دخيل على هذا الدين لجهله بالعقيدة وتعاليمها ، ولقصوره في البحث من ناحية أخرى وفي الكثير من الاحيان لعدم تمكنه من اللغة العربية ·

ينبغي علينا اذن أن نستيقظ لكل مايدور في ردهات الاستشراق وعلى علمائنا أن يعلموا بكل مايدور في مؤتمراتهم وفي ندواتهم ، وفي داخل الجامعات التي خصصت أكثر من كرسي للاستشراق حتى اذا انحرفت بهم الامور رددناهم على أعقابهم وبينا لهم الصحيح من الراي والسديد مما يبتغون ··

واني لواثق ثقة تامة في غيرة علمائنا من المسلمين على دينهم الاسلامي القويم ، وانهم لايتوانون في الدفاع عن ديننا ·· ومقارعة هؤلاء الدخلاء الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق من أجل رفعة ديننا الحنيف ·· واعلاء كلمة الله ··واعلاء كلمة الحق « والاسلام » خير دين بشر به أشرف النبيين وخاتم المرسلين ·

مراجع البحث

١ ـ نجيب العقيقي : المستشرقون
٢ ـ د· علي حسني الخربوطلي : المستشرقون والتاريخ الاسلامي
٣ ـ زكريا هاشم زكريا : المستشرقون والاسلام
٤ ـ د· أحمد الشرباصي : التصوف عند المستشرقين
٥ـ أنور الجندي : الاسلام والثقافة العربية
٦ ـ ابراهيم خليل أحمد : المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والاسلامي
٧ ـ عبد الخالق أبو رابية : في جولة مع المستشرقين
٨ ـ طه المدور : الديانات والحضارات
٩ ـ أحمد أمين : يوم الاسلام
١٠ ـ محمد عبد الغني حسن : علم التاريخ عند العرب
١١ ـ محمد عبد الغني حسن : الاسلام بين الانصاف والجحود
١٢ ـ خودا بخش : الحضارة الاسلامية